

مآثر القائد صلاح الدين الأيوبي

الأخلاقية والسياسية

الدكتور خالد يوسف القضاة

مقدمة :

اختارت الأمم الغربية للقيام بالحملات الصليبية على البلاد الاسلامية توقيتا مناسباً. فمصر الفاطمية كانت تمرّ في فترة ضعف وانحطاط، وعدم استقرار تدلّ عليها الثورات الداخلية والمؤامرات على الحكم. وكانت مصر نهبا للمجاعة والثورات والانقلابات وانتشار الأوبئة، وبلاد الشام كانت في حالة من الفوضى والفرقة والنزاع. وكانت مسرحا للحروب بين الفاطميين والاسلاجقة، وما بين أمراء السلاجقة أنفسهم. وكان يرافق حالة التضعف السياسي انتشار فرق الاسماعيلية وهي القرامطة والحشاشون والفاطميون. وكانت هذه الفرق وخاصة الحشاشون تبث الرعب والارهاب وتسفك الدماء وتستبيح الحرمات وتعتدي على الأمنين، فعاثوا فسادا في أوساط المجتمع الاسلامي. وكانت هذه الفرق تتعاون مع الصليبيين. كما فتكت بالكثير من قادة المسلمين ورجالاتهم وقد حفل تاريخ هذه الفرق بالارهاب السياسي والاعتقالات المنظمة ضد زعماء السنّة، بل كاد صلاح الدين نفسه يقع ضحية لإرهابهم.

أما بغداد عاصمة الخلافة العباسية فقد بلغت درجة كبيرة من الضعف كما مرّقت عوامل الفرقة والانقسام الدولة، وكان الخلفاء لا سلطة لهم. ولم تكن شمال افريقيا أحسن حالا من بقية أجزاء الوطن العربي الاسلامي حيث كانت تعاني من الضعف والفرقة والنزاع. وسقطت صقلية الاسلامية سنة 1091 م بأيدي النورمان ومحيت من الخريطة الاسلامية. وأما بلاد الأندلس فكانت تمرّ بعصر ملوك الطوائف الذين كانوا يتقاتلون ويتناحرون فانهكهم التنازع والفرقة وذهبت ريحهم بل كانوا يستجدون ببعض ملوك النصارى ضد بعضهم بعضا.

ويؤكد أحد الدارسين هذه الحالة بقوله : يذكر كثير من المؤرخين من القدماء والمحدثين أن من أسباب هجوم الصليبيين على المشرق الاسلامي هو مراسلة الفاطميين لأمم الفرنج وتشجيعهم على مهاجمة السلاجقة، لأن هؤلاء الآخرين تغلبوا على الفاطميين وانتزعوا منهم

البلاد الشاميّة زيادة عن الخلافات المذهبية ما بين أهل السنة والشيعة وكانت على أشدها في تلك السنة⁽¹⁾.

ان التوسع في الفتوحات الاسلامية جعل الامبراطورية البيزنطية تخاف على مدينة القسطنطينية أن تقع بأيدي المسلمين، الأمر الذي يعني بالتالي دخول الاسلام إلى قلب أوروبا.

ان جملة أوضاع البلاد الاسلامية السياسية والعسكرية والاقتصادية السيئة وغيرها من الظروف كانت من بين العوامل التي أغرت أمم الغرب بتجريد الحملات الصليبية لاحتلال أجزاء كبيرة من البلاد الاسلامية ومن ضمنها بيت المقدس.

في مثل هذه الظروف، في فترة الضعف والانحطاط والاقتتال والتآمر، في فترة عمّ فيها اليأس وتلاشت الثقة بقدرات الأمة، في مثل هذه الفترة والتي لحقت بها الهزائم القلوب والنفوس من أبناء الأمة برز صلاح الدين ليغير مسيرة الأمة من حال إلى حال، من اليأس إلى الأمل، ومن الضعف إلى القوة ومن هزيمة النفس والقلب إلى الثقة بالذات وقدراتها، قد رأت الأمة الاسلامية، لتستأنف مسيرتها الحضارية العالمية من جديد ولتثري حضارة الانسان بالقيم والانجازات.

مولد صلاح الدين ونشأته وتربيته :

والده نجم الدين أيوب بن شاذي حكم تكريت بالعراق عدة سنين اكتسب خلالها خبرة بشؤون الحكم والادارة، وحظي بحب أهالي تكريت. وولد صلاح الدين ليلة رحيل والده نجه الدين من تكريت سنة 1138 م، وسمّاه يوسف، وعرف فيما بعد باسم صلاح الدين. ويؤكد أحد الباحثين « ان صلاح الدين ولد في أرض عربية ودرج في الفلوات العربية تربى على التقاليد الاسلامية، وتطوّرت حياته على النمط العربي الاسلامي، وكانت الآداب العربية متعته، أفسح لها فازدهرت في قصره وعهده أيما ازدهار، وكان أكثر جنده من العرب وبعضهم من قوميات مختلفة، ولكن اللغة العربية كانت لغة الجميع، والثقافة الاسلامية كانت البوتقة التي انصهرت فيها كل هذه الجموع فغدوا يعرفون بها وفي ظلّها يجاهدون »⁽²⁾.

رحلت العائلة ومعها الطفل متجهة صوب الموصل. حيث رحب بها عماد الدين زنكي وأكرم وفادتها، وذلك وفاء لجميل قدّمه نجم الدين أيوب إلى عماد الدين في العراق. وقد رأى عماد الدين في نجم الدين رجلاً داهية، عادلاً وحكيماً. فأسند إليه حكم بعلبك سنة 1130 م. ونشأ صلاح الدين وترعرع في بعلبك في ظل والده حاكم بعلبك، ولا شك أن صلاح الدين نشأ في جوّ الجهاد، وتشبّع في بلاط نور الدين بروح العدل في الرعية والحرص على رخاء الشعب ورفاهيته. وتعلم من نور الدين أن لا يقاتل دفاعاً عن حلب أو الموصل، وإنما كان يجاهد جهاد المسلمين دفاعاً عن ديار الاسلام، وهذا ما يؤكده أنيس القاسم بقوله :

(1) محمود شلبي، حياة صلاح الدين، ص 23.

(2) أحمد شلبي - التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية، ص 166.

« ذلك أن صلاح الدين دخل بلاط نور الدين زنكي وهو في سن الصبا، كان عمره آنذاك حوالي ستة عشر عاما. وكان شريكه من أكبر قادة نور الدين العسكريين. كما أن والده كان في خدمة عماد الدين زنكي والد نور الدين، ثم دخل في خدمة نور الدين فيما بعد، أي أن بداية حياة صلاح الدين قد ارتبطت بأسرة زنكي التي كرسّت لقتال الصليبيين والعمل على توحيد كلمة المسلمين»⁽³⁾.

ونظرا لشجاعة أسد الدين شريكه شقيق نجم الدين، فقد عينه نور الدين قائدا عاما لجيشه، كما عين نجم الدين حاكما لدمشق. وبهذا حظي صلاح الدين برعاية واهتمام نور الدين.

وفي هذه الفترة التي كان يحكم فيها الفاطميون مصر، وصلوا إلى درجة من الضعف والخلاف والانقسام مما أغرى الاعداء بمحاولة الاستيلاء على ميراث هذه الدولة. وكان من زرائها اثنان متنافسان هما ضرغام وشارو. وقد بلغ حدّ التنازع بينهما ان استنجد ضرغام بملك القدس الصليبي واستنجد شارو بنور الدين زنكي. تردد نور الدين في تقديم المساعدة، ولكن أسد الدين شريكه وصلاح الدين تدخلوا واقتنعه بضرورة اجابة طلبه لما فيه خدمة الاسلام والمسلمين.

وجّه أسد الدين جيشا وجعل صلاح الدين قائدا لحدى فرقه واشتبك مع الصليبيين. ولكن أسد الدين وجد أنه اذا كان لا بد من مواجهة أطماع الصليبيين بشكل حاسم في مصر فعليهم أن يعودوا إلى الشام بسرعة لكي يعيد تنظيم جيشه ويزوده بالعدد والعدة لكي يواجه ضرغام وتأمّره مع الصليبيين. واقتنع نور الدين بذلك من أنه لا بد من عمل سريع لانقاذ مصر، فأمر باعداد جيش بقيادة أسد الدين شريكه وصلاح الدين حيث احتلوا القاهرة. ثم احتل صلاح الدين مدينة الاسكندرية. ومن هنا بدأ نجم صلاح الدين يلمع. ويؤكد أحد الباحثين ذلك بقوله : « ومما يسترعي النظر أن أهل الاسكندرية أحبوا صلاح الدين حبا عظيما لما أبداه من شجاعة وخلق عظيم»⁽⁴⁾.

وعاد أسد الدين شريكه وصلاح الدين إلى الشام بعد أن استتب الوضع في مصر، ولم يمض وقت طويل حتى بدأ الخليفة الفاطمي العاضد يستنجد مرّة أخرى بنور الدين محمود لأن الصليبيين عادوا يهددون باحتلال مصر، وقام بارسال (شعور نساء قصه) يقصد اثارة نور الدين ليسرع في انقاذ أعراض المسلمين من الصليبيين. فاستجاب نور الدين وأرسل جيشا للمرة الثالثة إلى مصر بقيادة أسد الدين شريكه وصلاح الدين، وقام الخليفة العاضد بتعيين أسد الدين رئيسا للوزراء في مصر وما لبث ان توفي أسد الدين بعد شهر. فقام الخليفة بتعيين صلاح الدين رئيسا للوزراء بعد عمه سنة 1169 م. وكان في الثانية والثلاثين من عمره.

(3) أنيس القاسم، تأملات في الاحتلالين الصليبي والصهيوني، ص 108-109.

(4) أبو الفتوح التوأنسي، من أبطالنا الذين صنعوا التاريخ، ص 9.

وقد استمال صلاح الدين قلوب الناس بحسن تصرفه ونكاته فمالوا إليه وأحبوه، كما نال محبة نور الدين. ويؤكد أحد الباحثين بأن صلاح الدين عندما تولى الوزارة « أظهر العدل بين الناس وعاملهم بكرم السجايا ونبل الصفات. وأظهر التسامح مع أصحاب المذهب الشيعي الذي كان سائدا هناك. كما سَوَّى معاملته بين أتباع الديانات المختلفة، فأبرز صفة أصيلة في نفسه هي التسامح الديني. واتاح للاقباط حرّية التدين إلى أقصى حدّ. وكان من نتائج ذلك أن أحبه الأقباط محبة شديدة حتى ليذهب أحمد زكي (باشا) إلى أنهم وضعوا صورته في كنائسهم ويستشهد على ذلك بأدلة كثيرة منها أن الشاعر عبد المنعم الأندلسي زار مصر في ذلك الحين فدهش لما رآه من حب القبط لصلاح الدين فنظم قصيدة طويلة في هذا المعنى جاء فيها :

فحطّوا بأرجاء الهياكل صورة لك اعتقدوها كاعتقاد الأفاثم

وقد اهتم صلاح الدين في هذه الفترة باصلاح أحوال البلاد التي كان قد عمّها الفساد أثناء فترة ضرغام وشارو. وعندما تأمر مؤتمن الخلافة مع الصليبيين للتخلص من صلاح الدين أرسل إليه جماعة مسلحة فأخذوه وقتلوه. وقام صلاح الدين بعزل كافة الخدم بالقصر واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوش. وغضب السودانيون لمقتل مؤتمن الخليفة (لأنه كان سودانيا) فهزمهم صلاح الدين وقضى عليهم.

وحاول الصليبيون احتلال دمياط ولكن صلاح الدين التقى بهم على ساحل البحر المتوسط فحطّم جيشهم وأشعل النار في سفنهم وطاردهم إلى حدود فلسطين وألقى الرعب في قلوبهم.

ثم قام صلاح الدين بعزل قضاة مصر لأنهم من الشيعة واستبدلهم بقضاة من السنة. وكان صلاح الدين يسير على المذهب الشافعي وهو من مذاهب السنة. وكان نور الدين كذلك من أهل السنة وكتب إلى صلاح الدين بضرورة قطع خطبه عن الخليفة الفاطمي وجعلها للخليفة العباسي وخلع الخليفة العباسي لقب « معزّ أمير المؤمنين » على الملك صلاح الدين وبهذا انتهت الخلافة الفاطمية وبدأت الدولة الأيوبية في مصر والشام. وطرد الصليبيين من فلسطين بعد أن تغلب عليهم في معركة حطين الفاصلة. وتوفي صلاح الدين سنة 489 هـ، بعد أن بلغ من العمر خمسا وخمسين سنة.

مآثر صلاح الدين السياسية والأخلاقية :

ان الدارس لمآثر صلاح الدين السياسية والاخلاقية والعسكرية وغيرها لا بد أن يتناول بالتحليل العميق شخصية صلاح الدين وبيئته التي نشأ فيها وأسلوب تربيته. كما أن عليه أن يدرس واقع الأمة وأحوالها وظروفها آنذ، سواء أكانت الظروف السياسية أم الاجتماعية أم الاقتصادية أم غير ذلك. وأن يتعرّف إلى الأهداف التي رسمتها هذه الشخصية لنفسها والأساليب التي اتبعتها.

ويعني أن المآثر والانجازات تكتسب أهمية أكبر كلما كانت التحديات أكبر وأن هذه الأهداف تزداد أهمية بمقدار نبل الوسائل والأساليب التي اتبعتها هذه الشخصية، طالما أن الحديث كان عن هذه الشخصية الفذة الإسلامية القيادية، الملتزمة بالاسلام عقيدة ونظام حياة. فهي بالتالي شخصية ملتزمة بأهداف ووسائل تحكمها الشريعة وضوابطها. فالوسائل يجب أن تكون منسجمة مع الأهداف⁽⁵⁾

لا بد للباحث أن يدرس طبيعة هذه الشخصية ومبادئها ووسائلها وأهدافها ولا بد أن يسأل عن الدوافع والانجازات ولا بد أن يسأل ويبحث عن مفتاح هذه الشخصية. وواضح من سيرة صلاح الدين ومن آراء الباحثين والمختصين كما يؤكد أحدهم :

« ان مفتاح شخصية صلاح الدين هو أنه كان مسلما صادق الاسلام، والمسلم الحقيقي لا يطبق احتلال الصليبيين لبית المقدس وتدنيس أولى القبلتين وثالث الحرمين بل وتحويلها إلى كنائس ومستودع للقاذورات. لقد نشأ على هذه العقيدة ورأى التطبيق العملي المؤمن لها في بلاط نور الدين »⁽⁶⁾.

نحن ولا شك أمام شخصية فذة تجعل الباحث يتساءل كيف نجح صلاح الدين في توحيد جهود الأمة ؟ لماذا التفّ حوله الناس، حكاما ومحكومين من أبناء الأمة ما الذي جعله يصمد كل هذه السنوات أمام الصليبيين ؟ ولماذا شنّ حربا شاملة عليهم ؟ كيف نال صلاح الدين حب الناس وتقديرهم واعجابهم به ؟

نحن أمام شخصية صلاح الدين الملتزمة بضوابط الشريعة الاسلامية. ومع ذلك لم يكن متزمتا في تدينه ولم يكن مغرورا، لأن الاسلام يحارب الغرور والتكبر، وكان جَمّ الأدب والتواضع ويؤكد أنيس القاسم ذلك بقوله :

« ومن الثابت أن تواضع صلاح الدين لم يكن مصطنعا ولا متكلفا ولا سياسة. كان ذلك هو خلقه من القرآن. فقد كان كثير القراءة للقرآن الكريم. ومن الواضح أن قراءته كانت قراءة رجل متمعن متدين يتعلق ويتخلق بأخلاق القرآن ويعمل بهذه الأخلاق. على أي حال كان صلاح الدين مؤمنا أنقذه إيمانه من الغرور ومن دوران الرأس بالنصر حتى وإن كان ذلك النصر نقطة تحوّل حقيقي في التاريخ »⁽⁷⁾.

على ان بهاء الدين بن شداد هو من أفضل من يعطينا صورة واضحة وصادقة عن شخصية صلاح الدين وعن عقيدته وسلوكه وأخلاقه. فقد عيّن صلاح الدين ابن شداد قاضيا

(5) أحمد شلبي، التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية، ص 156.

(6) أنيس القاسم، مصدر سابق، ص 108.

(7) أنيس القاسم، مصدر سابق، ص 249.

لعسكره وللقدس الشريف، وظلَّ بهاء الدين في خدمته وملازما له ليلا ونهارا إلى أن أدركته الوفاة مما مكَّنه بالتالي من أن يعرف أدق تفاصيل حياة هذا البطل. فجاء وصفه لحياة هذه الشخصية التاريخية من خلال المعاشاة والاختلاط والتعامل والعمل في معيته.

يقول ابن شداد في وصف تدبُّن صلاح الدين وإيمانه :

« وكان رحمة الله عليه - حسن العقيدة كثيرا لذكر الله تعالى، قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء »⁽⁸⁾.

« وكان رحمه الله تعالى يحب سماع القرآن العظيم، وكان يستقريء من يحضره بالليل وهو في برجه الجزئين والثلاثة والأربعة وهو يسمع ». « وكان رحمه الله رقيق القلب، خاشع الدمعة إذا سمع القرآن يخشع قلبه، وتدمع عينه في معظم أوقاته »⁽⁹⁾.

وكان يحافظ على صلاة الجماعة ويشهد له ابن شداد بقوله : « كان شديد المواظبة عليها حتى أنه ذكر يوما أن له سنين ما صلَّى جماعة، وكان أن مرض يستدعي الامام وحده، ويكلف نفسه القيام ويصلي جماعة وكان مواظبا عن السنن الرواتب »⁽¹⁰⁾.

وأما بالنسبة للزكاة فيقول ابن شداد « فأنه مات - رحمة الله تعالى - ولم يحظ ما وجبت عليه الزكاة »⁽¹¹⁾. واستنفذت صدقة النفل جميع ما ملكه من الأموال، ولم يترك الا سبعة وأربعين درهما وجرما واحدا من الذهب، ولم يخلف ملكا ولا دارا ولا عقارا ولا شيئا من أنواع الأملاك⁽¹²⁾.

وكان يعظّم شعائر الدين، وكان حسن الظن بالله سبحانه وتعالى : منيباً إليه وكان رؤوفا وعادلا ورحيما، ناصرا للضعيف على القوي، وكان من عادته أن يجلس كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتخاصمين والمتحاكمين وكان كريما فوق ما يؤمل الطالب وكان يبسط وجهه لمن يعطيه ولمن لم يعطه. وكان قوي النفس وكان شجاعا شديد البأس عظيم الثبات ولا يهوله أمر. ويؤكد ابن شداد من تجربته مع صلاح الدين : « وما رأيته استكبر العدو أصلا، ولا استعظم أمرهم قط، وكان مع ذلك في حال الفكر والتدبير، نذكر بين يديه الاقسام كلها، ويرتب كل قسم بمقتضاه من غير حدة ولا غضب يعتريه رحمه الله »⁽¹³⁾.

(8) ابن شداد، النوادر السلطانية والحاسن اليوسفيه، ص 7.

(9) ابن شداد، المصدر السابق، ص 9.

(10) ابن شداد، المصدر السابق، ص 7.

(11) ابن شداد، المصدر السابق، ص 8.

(12) ابن شداد، المصدر السابق، ص 8.

(13) ابن شداد، المصدر السابق، ص 20.

وكان صلاح الدين مصابرا وثابتا لا ينهزم في الحروب، وفي إحدى المعارك، يوم المصاف الأكبر بمرج عكا، هُزم المسلمون في بداية المعركة وولى الجنود الادبار، إلا أن صلاح الدين بقي صامدا كالطود الأشم، ثابت القدم وأخذ ينادي على الناس ويشجعهم وهم يعودون خجلا منه وتقديرا له ولم يزل كذلك حتى قتلوا من الصليبيين زهاء سبعة آلاف أو يزيد⁽¹⁴⁾.

وكان صابرا في جهاده وفي مرضه، وكان حليما قليل الغضب ويحب العفو، ويزيد ابن شداد في وصف شمائله وسجاياه العظيمة : « وكان السلطان كثير المروءة، ندي اليد، كثير الحياء، مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف، لا يرى أن يفارقه حتى يطعم عنده، ولا يخاطبه بشيء إلا وينجزه⁽¹⁵⁾ ».

وكان عفوا يحب العفو والتسامح ومن الأمثلة على ذلك « ان أسيرا افرنجيا مثل بين يديه وقد هابه، فظهرت امارات الخوف والجزع عليه، فقال له المترجم من أي شيء تخاف فأجرى الله على لسانه قائلا : كنت أخاف قبل ان أرى هذا الوجه، فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه، أبقيت أني لن أرى إلا الخير، فرق قلب صلاح الدين له وأطلق سراحه.

وحضرت إليه مرة امرأة فرنجية تبكي وتصرخ بأعلى صوتها وعندما سألتها عن حالها ذكرت بأن أناسا من جماعة المسلمين دخلوا خيمتها وسرقوا ابنها، فرق لحالها، ودمعت عيناه وأرسل من يسأل عن ابنها في السوق، فاشتراه ودفع ثمنه واعاده إلى أمه.

ما هي مصدر هذه الشمائل وكيف تكونت لدى صلاح الدين، أحد الباحثين يوضح ذلك بقوله : « وأن الباحث اذا عد صفاته وأخلاقه يجدها مزيجا من شهامة العرب وسماحة الاسلام ومواهب صلاح الدين الشخصية. فالقيادة الماهرة، والسياسة البارة، وحب العفو، والوفاء للصديق والنبل مع العدو، مع الكرم السابغ والعلم الزاخر ومع تشجيع العلم ورعاية العلماء كلها صفات نجدها في كثير من القادة متقاربة أو متفاوتة تفاوت شخصياتهم. وقد احتفى كتاب الغرب وملوك الغرب بصلاح الدين وسيرته على نحو ما احتفى به المسلمون، فقد كان الجانب الانساني لصلاح الدين موضع دهشة الغربيين في فترة لم يكن للجانب الانساني فيها مجال⁽¹⁶⁾ ».

ومن أبرز شمائله نزاهته وبعده عن التكبس الشخصي ولا غرابة في ذلك فقد عرف بالورع والزهد والنزاهة. وينقل أحمد شلبي رأي بروكلمان :

« وليس من شك في أن قلّة ضئيلة من أمراء المسلمين يمكن أن تضارعه من حيث تجرده عن أية نزعة إلى الكسب الشخصي ومن حيث انصرافه إلى خدمة الدولة ورعاياها ليس

(14) ابن شداد، المصدر السابق، ص 20

(15) ابن شداد، مصدر سابق، ص 31.

(16) أحمد شلبي، مصدر سابق، ص 166.

غير، ولم يستطع أعداؤه أنفسهم الا الاقرار له، بالشهامة والنبيل في معاملة الخصم المغلوب»⁽¹⁷⁾.

ويكاد يكون هنالك اجماع بين المؤرخين العرب والأجانب على أن صلاح الدين لم يكن له مطامع شخصية. وهذا جعله بالتالي ينصرف انصرفا كليا إلى الهدف الأكبر الذي نذر نفسه له⁽¹⁸⁾.

ومما يدل على ورعه وزهده وبعده عن السعي وراء أهداف شخصية انه قام بتوزيع جميع الكنوز التي آلت إليه بعد انهيار الخلافة الفاطمية ولم يترك لنفسه شيئا منها. وينقل الباحث أحمد شلبي وصف Emerton وصفا لصلاح الدين كأعظم شخصية عرفها عصر الحروب الصليبية وأهم حدث في تاريخ هذه الحروب.

« أما المعسكر الاسلامي فقد حصل في هذه الأثناء على مكانة حققها له القائد الجديد الذي كان أعظم شخصية عرفها عصر الحروب الصليبية، ليس فقط في بطولته الحربية، بل في صفاته الشخصية التي تضعه في القمة بين العظماء والمصلحين. لقد كان صلاح الدين يعرف أهدافه الحربية ويجيد التخطيط لها، وكان من رعاة العلوم والمعارف، وكان مثلا طيبا في الوفاء بالوعد والشهامة والكرم»⁽¹⁹⁾.

ويؤكد من عايش صلاح الدين ومن تعامل معه من الأصدقاء والأعداء ومن قام بتحليل شخصيته من النقاد والمؤرخين أن من أهم صفاته نكران الذات وتواضعه وكرمه ودفاعه المعنوي عن الاسلام ضد أعدائه وضد من ينتمون إليه اسميًا. ويؤكد جب ذلك بقوله :

« ولم يكن صلاح الدين نفسه ساذجا، ولكنه مع هذا كان غاية في البساطة، فذا في النزاهة. ولقد حير أعداءه من الأندلس والأبعدين، لأنهم كانوا يتوقعون أن يكون حوافزه مثل حوافزهم، وأن يقوم باللاعيب والمداورات السياسية مثلما يفعلون » ويضيق قائلا : « الا أنهم كانوا آخر الأمر يصطدمون بصخرة مستقرة من اخلاصه لمثله العليا، اخلاص لم يكن لأحد من الناس أو لشيء من الأشياء أن يزعه من مكانه »⁽²⁰⁾.

ويرى جب أنه تجلّى لصلاح الدين ضعف المجتمع الاسلامي السياسي آنذاك واستندل على ذلك من سماحه بتأسيس الممالك الصليبية واستمرار بقائها والذي نجم أصلا عن انحطاط في الخلق السياسي، وعلى هذا الانحطاط ثار صلاح الدين⁽²¹⁾.

(17) أحمد شلبي، مصدر سابق، ص 167.

(18) أنيس القاسم، مصدر سابق، ص 108.

(19) أحمد شلبي، مصدر سابق، ص 436.

(20) جب، دراسات في حضارة الاسلام، ص 132.

(21) جب، المصدر السابق، ص 133.

ولم يكن أمام صلاح الدين إلا السعي نحو توحيد الأمة الإسلامية في ظل دولة إسلامية واحدة دستورها الشريعة الإسلامية يحكمها الخليفة العباسي.

« لقد جاء صلاح الدين ليثبت مرة أخرى أن التمسك السليم بأخلاقيات الحكم في الإسلام من شأنه أن يؤدي إلى نفس النتائج التي أدى إليها التمسك بها دائما »⁽²²⁾.

لقد وضع الإسلام للحكم ضوابط أخلاقية تقوم على العدل ومصلحة المجتمع. إن الفترة التي جاء فيها صلاح الدين اتسمت بالضعف والانحطاط السياسي والإداري والاقتصادي، إذ لم يكن هناك مؤسسات دستورية تصوّب الأوضاع وتكبح جماح المفسدين والمستبدين، الأمر الذي جعل الحكام يتمادون في غيهم وضلالهم وفسادهم كما أن عدم التزام الحاكم بالضوابط الأخلاقية الإسلامية أدى إلى كثير من النكبات والمصائب، وأثبت التاريخ دائما أن التمسك بها كان يحقق الانتصارات. فليس للحاكم المسلم أن يغدر أو يخون أو أن ينتهج سياسة الغاية تبرّر الوسيلة، فالوسيلة يجب أن تتسجم مع شرف الغاية ونيل الهدف في الإسلام.

وإذا استعرضت صفحات تاريخ القضاء الإسلامي فلن تجد قاضيا أو فقيها أجاز للحاكم الاعتداء على أموال الناس وأرواحهم.

لقد أدرك صلاح الدين بعمق إيمانه والتزامه بأحكام دينه أن سبب الهزال السياسي للأمة والعمل السياسي المتردّي هو الابتعاد عن روح الشريعة الإسلامية وأخلاقياتها. وأدرك أيضا أن حالها لا يصلح إلا بالتمسك بهذه الأخلاق ومحاربة التجزئة والظلم.

وقد ضرب صلاح الدين المثل والقُدوة في مراعاة الخلق الإسلامي السياسي وأقام العدل ورعى مصالح الأمة كما يجب أن تكون الرعاية. ورفع الظلم عنها فبادله الناس الثقة والمحبة. وقد أثنى ابن جبير عليه لأنه ألغى كافة أنواع الضرائب بما فيها تلك الضريبة التي كان يؤديها الشعب المصري وهي ضريبة الشرب من ماء النيل⁽²³⁾.

لقد وضع صلاح الدين لنفسه أهدافا وطموحات كبيرة. والواقع أن مآثر الإنسان تشكل جزءا من هذه الطموحات وما عقد الإنسان العزم على تحقيقه. وقد عبر صلاح الدين عن أهدافه ومقاصده في إحدى رسائله إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية بقوله :

« وهذه المقاصد الثلاثة : الجهاد في سبيل الله، والكف عن مظالم عباد الله والطاعة لخليفة الله، هي مراد الخادم من البلاد إذا فتحها، ومغنمه من الدنيا إذا منحها⁽²⁴⁾.

(22) أنيس القاسم، مصدر سابق، ص 96.

(23) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 31.

(24) جب، مصدر سابق، ص 34.

وهذا ما أكدته أيضا في رسالته إلى قلعج أرسلان سلطان الأناضول عام 1178 م والتي يقول فيها : « انه لن يسمح بتداول الحروب بين أمراء المسلمين بدلا من اتحادهم معا في الجهاد »⁽²⁵⁾.

وكان صلاح يدرك أن المشكلة التي يواجهها لم تكن سياسية فحسب، بل هي إلى حد أكبر أخلاقية ونفسية، ولكنه بنفس الوقت أدرك ان شاء ان يصل إلى نتائج فعالة، فعليه أن يدعم الولاء السياسي بحوافز وروادع أخلاقية ونفسية. وكانت سياسته تقوم أولا وأخيرا على الصدق والتمسك به حتى مع الأعداء، فلم ينقض اتفاقا أو هدنة مع الصليبيين. أما مع منافسيه من أمراء المسلمين فكان يقرن الوفاء بالكرم والاخلاص. فقد حاصرا مصر لأنه كان قد وعد بها الأمير الارتقي صاحب حصن كيفا جزاء على مخالفته له، وبعد أن استولى عليها ترك الخليفة كنوزها الهائلة وفاء له⁽²⁶⁾.

ولايجاد تيار خلقي ونفسي يدعم توجهاته وأهدافه الكبيرة كان بحاجة إلى مساندة الفقهاء وموجهي الرأي العام واستطاع بصدق توجهه وإخلاصه أن ينال احترامهم وإعجابهم به. كما قَرَّب إليه المتصوفة وأضفى عليهم رعايته واهتمامه. كما اكتسب محبة الناس وثقتهم عندما ألغى الضرائب في البلاد التي حكمها.

واستولى حب الجهاد على قلبه وجوانحه ووصف ابن شداد انشغاله بهذا الأمر إلى درجة أنه « ما كان له حديث الا فيه، ولا نظر إلا في آله، ولا كان له اهتمام الا برجاله ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه. ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملأه »⁽²⁷⁾.

وقد حمله شغفه بالجهاد وولعه به على المصابرة في القتال. فقد حاصرت جيوش الصليبيين جيوش صلاح الدين بالاسكندرية ومرت فترة قاسية بصلاح الدين أظهر خلالها ضروبا من السياسة وبرزت فيها شخصيته وحسن ادارته وقد فشل الحصار بسبب إصراره من جهة وبسبب هجوم عمه أسد الدين شيركوه على القاهرة من جهة، وهجوم نور الدين على مدينة بيت المقدس من جهة أخرى⁽²⁸⁾.

وعندما توفي نور الدين زنكي ترك فراغا سياسيا وعسكريا في بلاد الشام. فقد أرهق الصليبيين وألحق بهم هزائم منكرة. وعندما دب النزاع بين قادة نور الدين وطلب أحدهم تدخل صلاح الدين (وكان حينئذ واليا لمصر) أيد الخليفة العباسي هذا الطلب والتدخل، وكان من نتيجة ذلك أن خاض صلاح الدين بعض المعارك في الشامل، كتب الله النصر في نهايتها فيما بين 570-572 هـ وانتهت باعتراف الخليفة العباسي بولاية صلاح الدين على الشام ومصر.

(25) جب، مصدر سابق، ص 35.

(26) جب، مصدر سابق، ص 135.

(27) ابن شداد، مصدر سابق، ص 21.

(28) أحمد شلبي، مصدر سابق، ص 654.

وقد استخدم صلاح الدين السياسة كأسلوب في تفريق جموع الصليبيين ولفتح ثغرات في جبهتهم ضد المسلمين. فكان يهادن بعضهم ويقاقل البعض الآخر حسبما تمليه الظروف العسكرية والسياسية السائدة. فقد حاصر صلاح الدين قلعة يعقوب (الصليبية) وشدد عليها الحصار حتى سقطت بيده وأسر من فيها وأمر بهدم القلعة. عندها أدرك الصليبيون أن لا أمل في الاستمرار في هذا الصراع فراحوا يندشون الهدنة مع صلاح الدين. فهادن بعضهم وحارب البعض الآخر وكان مما دفعه أيضا إلى عقد الهدنة مع الصليبيين أن أحداثا وقعت في بعض أجزاء بلاد الشام مما اقتضى الأمر التفرد لها من قبل صلاح الدين وخاصة بعد وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين.

فكان صلاح الدين يهادن بعض الامارات الصليبية حتى يحد قوتها في معركته ضد الصليبيين كما فعل مع أمير انطاكية الذي طلب تجديد الهدنة بينه وبين صلاح الدين فوافق صلاح الدين لأن ذلك يحرم الصليبيين من قوة أمير انطاكية الصليبي. كما وافق على مهادنة أمير طرابلس الغرب لنفس الغرض. واستعمل صلاح الدين الخدعة في حروبه، فالحرب خدعة. ومن طريف الحوادث التي مرت مع وزيره بهاء الدين قراقوش وكان واليا لعا عام 586 هـ أنه كتب إلى السلطان صلاح الدين يخبره أن المؤمن تكفي لنصف شهر فقط، فلما وصل الكتاب إلى صلاح الدين أخفاه لئلا يشيع الأمر ويستغل الصليبيون الفرصة فيها جمون المدينة، فقام صلاح الدين بتجهيز ثلاثة مراكب من بيروت بزي الفرنجة حتى أنهم حلقوا لحاهم واستصحبوا بعض الخنازير معهم فلما مروا بالقرب من السفن الصليبية اعتقدوا أنهم منهم ولذلك لم يعترضوا سبيلهم.

وكان من أسباب انتصاره في معركة حطين هو حنكته والفنون الحربية التي استخدمها في مواجهة الصليبيين. فقد أحسن اختيار أرض المعركة وزمن وقوعها الذي كان في شهر تموز وهو أشد شهور السنة حرارة. وأمر بردم بعض صهاريج المياه القريبة وطمرت بعض صهاريج المياه القريبة من مواقع الصليبيين. وبذلك استخدم صلاح الدين أسلحة الحر والعطش ضد الأعداء.

ولم تقتصر مواجهة صلاح الدين على الصليبيين، بل كان عليه أن يواجه بعض أمراء المسلمين في بلاد الشام ومصر الذين كانوا يلجأون إلى الاستعانة بالصليبيين ضد صلاح الدين وضد أهدافه في توحيد الامارات الاسلامية في دولة اسلامية واحدة. وعندما هاجم ريمون الصليبي مدينة حمص التي كان قد استولى عليها صلاح الدين، هبّ صلاح الدين لنجدتها سنة 570 هـ، ولكنه اصطدم بجيوش الزنكيين حيث جمعوا له قوات الموصل وحلب في موقعة قرب حماه سنة 1175 م وكان النصر فيها حليف صلاح الدين، اذ دخل على أثرها مدينة حلب وعزل الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين واتخذ صلاح الدين لقب ملك مصر والشام وحظي باعتراف الخليفة العباسي. ولكن الزنكيين لم يقبلوا هذه الهزيمة فلجأوا إلى الاستعانة بالصليبيين ولكن صلاح الدين هزمهم وحلفاءهم في موقعة تل السلطان سنة 1176 م.

واجه صلاح الدين صعوبات جمة في تنفيذ سياسته لتوحيد مصر والشام. ومن تلك الصعوبات المؤامرات التي كان يحببها الحشاشون والشيعة ضد صلاح الدين. فقد أرسل الحشاشون جماعة مسلحة لاغتيال صلاح الدين ولكن الله سلمه. وقد استعان الحلبيون بريموند الثالث الصليبي أمير طرابلس وعدوه بدفع الثمن اذا نجح في تخليص حلب من حصار صلاح الدين، وطبعا فقد استجاب ريموند لأنه يدرك خطورة أن تتحد امارات حلب ودمشق مع مصر فهب يساعد الملك الصالح لا حبا به، ولكن ليحول دون قيام وحدة بين مصر والشام على أساس الاسلام.

وما يؤكد صدق توجه صلاح الدين ومقارعته للاعداء أنه عرض على الخليفة العباسي في بغداد أن يسلم له مصر والشام واليمن والجزيرة العربية وكل البلدان التي كانت تضمها الدولة الايوبية مقابل أن ينهض الخليفة العباسي لمواجهة ملوك أوروبا الذين شنوا حربا صليبية على الشرق الاسلامي وخاضته بعد معركة حطين ولكن الخليفة لم يتحرك.

وكان صلاح الدين يشترك على تابعيه من الأمراء « أن يقيموا العدل في الرعية وأن يعينوه في حربه ضد الصليبيين »⁽²⁹⁾.

والهدف الرئيسي الذي ملك على صلاح الدين مشاعره وقلبه هو الجهاد في سبيل الله لتحرير ديار الاسلام من الصليبيين. ولا أدل على نبل هذا الهدف من أنه خاض حربا شاملة مع الصليبيين استغرقت كل سنوات عمره. وفي داخل الدولة، رفع صلاح الدين الظلم عن العباد وأشاع الأمن والأمان فنشطت التجارة والحركة الاقتصادية وأقام العدل وبذلك أرسى قواعد الجبهة الداخلية على أسس متينة من العدل والأمن والطمأنينة. لأن سلامة النتائج على جبهات القتال من سلامة الجبهة الداخلية. وقام صلاح الدين بالغاء الخلافة الفاطمية ولو بقيت هذه الخلافة لاضطر صلاح الدين أن يصرف كثيرا من جهوده وطاقاته للتصدي للمؤامرات التي كانت تحاك في البلاط من قبل قادة الأقاليم. فقد كان لكل قائم اقليم جيشه. ولم يعد صلاح الدين يخشى هؤلاء القادة لأنه وحد جيوشهم بجيش واحد تحت امرته. والتف الشعب المصري حول قيادة صلاح الدين نظرا لما أظهره نحو هذا الشعب من رعاية وعطف واهتمام بمصلحته. فرفع عنه الضرائب وفتح المدارس وبنى المستشفيات والمصحات وأزال كل المظالم التي كانوا يشكون منها زمن الخلافة الفاطمية.

كما ألغى صلاح الدين رسوم المرور التي كان الحجاج يدفعونها زمن الفاطميين والتي كانوا بسببها يلاقون ضغوطا شديدا تصل إلى حدّ الضرب، وبذل ذلك أقام السلطان أماكن للحجاج يأوون إليها خلال اقامتهم، لهم فيها الغذاء⁽³⁰⁾.

(29) أنيس القاسم، مصدر سابق، ص 108.

(30) ماجد الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا أعادت القدس، ص 255.

وانصرف صلاح الدين لبناء جيش قوي، فبنى التحصينات والقلاع حتى عين لهذه التحصينات وزيرا وهو بهاء الدين قراقوش.

وقد التزم صلاح الدين في سياسته وإدارته في شؤون الحكم بأخلاقيات الاسلام، وأشاع حوله جواً من الثقة والنصح لا مكان فيه للنفاق والدعاية المضلّة. ونجد أن وزيره القاضي الفاضل وكتابه عماد الدين الأصفهاني لا يبخلان عليه بالنصح وتحذيره عندما يقع في الخطأ. وكان في سلوكه الشخصي مثالا في الاستقامة. فهو يدعو إلى الجهاد ويجاهد، ويدعو للعدل وقيم العدل ويدعو للتسامح والعفو، وهو مثال في العفو والتسامح.

إن سيرة صلاح الدين جديرة بالدراسة والتدبر إذ استطاع في فترة زمنية وجيزة وهي فترة حياته أن يوحد مصر والشام وإن يطرد الصليبيين ويعيد للعالم الاسلامي هيئته.

ومن سمائل صلاح الدين العظيمة ومآثره الخالدة هو سياسته التطبيقية لما كان يدعو إليه الاسلام على نفسه وعلى الآخرين « فلم يكن هناك تناقض بين أقواله وأفعاله أو بين نواياه وأقواله وأفعاله. كان هناك الانسجام الكامل بين القول والفعل وكلها كانت مضبوطة بأخلاقيات الحكم في الاسلام. فانتصرت أفعاله في القلوب قبل ان تنتصر جيوشه في الميدان »⁽³¹⁾.

فقد أدرك صلاح الدين أن التراث الحي في ضمير الأمة المتمثل في القيم العليا التي جاءت بها الشريعة الاسلامية هو الذي يوحد المسلمين، وإن العودة إلى أخلاقيات الحكم في الاسلام يعزّز الثقة بين الراعي والرعية، ويوحد الجهود ويشيع الأمن والاطمئنان. ويصف أحدهم صلاح الدين بقوله : « كان صلاح الدين ضمن القادة العباقرة العظام، ذا شخصية نفاذة وإرادة قوية لا تقهر ومعرفة في فنون الحرب والسياسة لا تجارى، وكان ذا خلق متين يتميز بانسانية، ومثل قل ان وجدت في الفترة التي عاشها، وقد نال اعجاب وتقدير خصومه واعدائه »⁽³²⁾.

وقد ضرب صلاح الدين أروع الأمثلة بتسامحه وعفوه عندما دخل بيت المقدس وطرده الصليبيين منها. فقد أمر باحترام الأماكن المقدسة والتسامح مع النصارى وقد شهد المؤرخون النصارى المعاصرون وغير المعاصرين بكرم وأخلاق صلاح الدين وسماحته وتسامحه. وقد عامل النساء الصليبيين معاملة طيبة وسمح لهن بالخروج من بين المقدس معززات مكرمات ومعهن أموالهن واتباعهن وما يخصهن وكانت زوجة الملك رى لوز جنان الأميرة موجودة في بيت المقدس فطلب من صلاح الدين السماح لها بمصاحبة زوجها الذي أسر في نابلس فأذن لها كما طلبت أرملة أرناط الخروج فخرجت.

(31) ماجد الكيلاني، المصدر السابق، ص 255.

(32) صبحي عبد الحميد، معارك الحرب الحاسمة، ص 167.

أما اليتامى والشيوخ والأرامل من الصليبيين فقد أطلقهم صلاح الدين بدون فداء. بل وزودهم ببعض المال. ولدى التفكير بتسفير الأسرى فقد قسمهم إلى ثلاث مجموعات ووضع الحماية اللازمة لتأمين كل مجموعة من اعتداءات البدو إلى أن يخرجوا خارج فلسطين عائدين إلى بلادهم وترك الخيار للراغبين في البقاء في فلسطين من الصليبيين شريطة دفع الجزية.

هذا هو صلاح الدين الذي وحد الأمة، وجمعها على الجهاد وحزّر البلاد والعباد باخلاصه وتفانيه وجهده وجهاده وصدقته وشمائله التي جعلت منه مثالا وقدوة في السياسة والادارة في السلم والحرب.